ثقافة التسلية في مدينة دمشق خلال القرن الثامن عشر الميلادي

*مهند أحمد مبيضين**

ملخـص

استهدفت هذه الدراسة تسليط الضوء على ثقافة التسلية ومظاهرها، والفنون الشائعة في المجتمع الدمشقي إبان القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، في ضوء المادة التاريخية المتوفرة في المصادر المختلفة. وتحاول الدراسة كذلك توضيح الجدل الفقهي والموقف الديني من الفنون، وبخاصة انتشار الموسيقى وتقاليد الطرق الصوفية، ووجود المقاهي العامة التي احتضنت -وما تزال- بعض الفنون وعلى رأسها فن الحكاية الشعبية والتمثيل الشعبي وجلسات السمر والغناء.

وتعرض الدراسة إلى مظاهر الفن والزينة والتسلية في عادات أهل دمشق وتقاليدهم، إضافة إلى التعريف بفن الإنشاد وتراجم أبرز المنشدين والمغنين، كما ترصد بعض الحرف المرتبطة بالفنون. هذا، وجاءت الدراسة في مقدمة وخمسة مباحث، وخاتمة.

الكلمات الدالة: ثقافة التسلية، المجتمع الدمشقي، العصر العثماني.

المقدمـة

تكشف جملة من المصادر التاريخية الدمشقية في العصر العثماني، عن اهتمام واضح بمختلف أشكال الفنون، وتمدنا المصادر المحلية بمعلومات عن التقاليد الدمشقية ووسائل التسلية والفنون الشعبية التي مورست فيها، وتقدم المصادر الفقهية والمذكرات اليومية والتراجم والسجلات والمناظرات الدمشقية، إشارات عن حيوية المجتمع الدمشقي، وتنوع الفنون الشائعة التي تُظهر مجتمع المدينة العربية في العصر العثماني، في صورة مختلفة عن تلك التي وسمتْ بها.

لقد استهدفت هذه الدراسة الكشف عن ثقافة التسلية في مجتمع مدينة دمشق إبان القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، وذلك بالاعتماد على مصادر تاريخية متنوعة، وتبدأ بإلقاء الضوء على الجدل الفقهي والموقف الديني من الفنون، وبخاصة انتشار الموسيقى، وإلى جانبها انتشار عادة شرب القهوة في المقاهي العامة التي شكلت رافداً من روافد الثقافة الفنية الشعبية وعلى رأسها فن الحكاية وممارسة ألعاب التسلية في أوقات الفراغ، إضافة إلى التعريف بفن الإنشاد والمنشدين والمغنين في تلك المرحلة، مع الإشارة إلى الحرف المرتبطة بأوقات التسلية والترفيه والفرح الدمشقي، وإلى جانب ذلك تحدد الدراسة أهم المقاهي ومواقع انتشارها في المدينة ومحيطها.

---

* جامعة فيلادلفيا، عمان، الأردن. تاريخ استلام البحث 2007/5/8، وتاريخ قبوله 2007/8/16.

المبحث الأول: الجدل حول الغناء والموسيقى

تساءل علماء دمشق في القرن 12هـ/18م عن حكم الموسيقى[1] والغناء[2]، ومن ذلك السؤال الذي وجه إلى مفتي دمشق الشيخ إسماعيل بن رجب الحائك (ت: 1113هـ/1701م)، عن حكم سماع الموسيقى وضرب الآلات، وقد أفتى بإباحتها إذا "كانت لا تخرج الإنسان عن طاعة ا ولا تقوده إلى فعل معصية"[3].

ولا يبدو الشيخ عبد الغني النابلسي متشدداً في حكمه عن الدف والشبابة والسماع، فقد أجازها ولم يحرمها، لكونها تقرب الإنسان من ا وحبه، إذ يرى أنها لا تكون "إلا حباً في ا ...وهي سبب لاجتلاب السرور"[4]. ثم ألف الشيخ النابلسي رسالة بعنوان:"إيضاح الدلالات في سماع الآلات" بين فيها أن السماع ينقسم إلى ثلاثة أقسام: منه ما هو حرام محض، وهو لأكثر الناس من الشباب ومن غلبت عليهم لذاتهم وشهواتهم وملكهم حب الدنيا، ومنها مباح، وهو لمن لا حظّ له منه إلا التلذذ بالصوت الحسن واستدعاء السرور والفرح، أو يذكر به غائباً أو ميتاً فيستثير به حزنه ويستريح بما يسمعه[5].

ومنها مندوب، وهو لمن غاب عليه حب ا تعالى والشوق إليه، فلا يحرك السماع منه إلا الصفات المحمودة، ويزداد عنده الشوق إلى ا تعالى وتستدعي الأحوال الشريفة والمقامات العلية والكرامات السنية، وهذا القسم هو سماع الصوفية أهل الصدق والإخلاص في كل زمان[6].

---

(1) يعرف الخوارزمي الموسيقى بأنها "تأليف الألحان وهي لفظة يونانية، ويسمى المطرب، ومؤلف الألحان يسمى الموسيقور والموسيقار". أبو عبدا محمد بن أحمد الخوارزمي (ت:387هـ/997م)، **مفاتيح العلوم**، تحقيق نهى النجار، بيروت، دار الفكر، 1993، ط1، ص241. ويرى ابن سينا الموسيقى أنها علم رياضي "يبحث في أحوال النغم من حيث تتآلف وتتنافر وأحوال الأزمنة المتخللة بينها، ليعلم كيف يؤلف اللحن". انظر علي الشرمان، ثقافة الترفيه وأثرها في الموسيقى والغناء العربي، **مجلة دراسات/العلوم الإنسانية والاجتماعية**، المجلد 33، العدد 3، 2006، الجامعة الأردنية، ص458، وانظر عن الجدل حول الموسيقى والغناء في دمشق في القرن 7هـ/13م في: أبو محمد عبدا بن أحمد ابن قدامة (ت:620هـ/1223م)، **فتيا في ذم الشبابة والرقص والسماع**، 1976، تحقيق أبي عبدالرحمن محمد بن عمر الظاهري، مطبعة الجبلاوي، القاهرة، ص26.

(2) يعرف ابن خلدون صناعة الغناء بأنها: "تلحين الأشعار الموزونة بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة، يوقع على كل صوت منها توقيع عند قطعه فيكون نَغمةً. ثم تؤلفُ تلك النغم بعضها إلى بعض على نسب متعارفة فيلذ سماعها لأجل ذلك التناسب" أبو زيد عبدالرحمن بن محمد ابن خلدون (ت:808هـ/1405م)، **المقدمة**، بيروت، دار الكتب العلمية، 1993، ط1، ص335.

(3) إسماعيل بن رجب الحائك (ت: 1113هـ/1701م)، **كناش في الفقه والفرائض**، وفيه أسئلة وفتاوى لمختلف علماء دمشق، مخطوط رقم 5677، مكتبة الأسد، (الظاهرية)، دمشق، ق11ب.

(4) عبد الغني بن إسماعيل النابلسي (ت: 1143هـ/1730م)، **مجموع فتاوى**، مخطوط رقم 2684، مكتبة الأسد، (الظاهرية)، دمشق، ق23أ.

(5) عبد الغني بن إسماعيل النابلسي (ت: 1143هـ/1730م)، **إيضاح الدلالات في سماع الآلات**، مخطوط رقم 3452، مكتبة الأسد (الظاهرية)، دمشق، ق3ب.

(6) المصدر نفسه، ق4أ.

واقتفى تلميذ النابلسي الشيخ حسين بن طعمة البيتماني أثر أستاذه في الموقف من الموسيقى، فكتب رسالة في السماع، وضح فيها الموقف من السماع وروى بعض مشاهد نوبات السماع في منازل العلماء، فقد وصف نوبة سماع في منزل الشيخ محمد المرادي[7]، وكانت في حضرة الشيخ عبدالغني النابلسي ضرب فيها بالسنطير والناي والكمنجة والعود والوتر والشبابة[8]، وبين في رسالته "أن السماع بالآلات كالمطر ينزل على أرض النفوس فتهتز فتنبت ما فيها من الأسرار الإلهية والتقادير العلمية الكامنة في خزائن النفوس، فإن كان طيباً أنبتت طيباً، وإن كان خبيثاً أنبتت خبيثاً"[9].

ومع أن الفقهاء حاولوا إسناد فُتياهم إلى جملة من الأحاديث النبوية التي استقوها من مصادر تراثية مختلفة، إلا أن ذلك لا يعني أن تلك الفُتيا كانت ملزمة[10]، أو أنها حالت بين مجتمع مدينة دمشق وشيوع آلات السماع، والقبول بمظاهر الزينة والأفراح وشرب القهوة وارتياد المقاهي، وإقامة حلقات الذكر التي تشهد أنواعاً مختلفة من الفنون، ومنها ممارسة الرقص وضرب الدف، التي نجدها في مصادر التاريخ والحوادث اليومية والفتاوى أو المذاكرات الفقهية كما سميت في مطلع القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي[11].

يتأكد ذلك في القرن الثالث عشرالهجري/التاسع عشر الميلادي حين بين الفقيه ابن عابدين أن السماع ليس من اللهو المحرم لعينه بل لقصده، فقال: "إن هذا يفيد أن آلة اللهو ليست محرمة بعينها بل اللهو منها إما من

(7) محمد بن مراد المرادي، ولد في القسطنطينية وتعلم في مدارسها، وأتقن اللغات، ثم استقر في دمشق وأخذ عن علمائها ومنهم: الشيخ محمد الكاملي وعبد الغني النابلسي. حصل على ثروة ضخمة بطريق المالكانة، واشتغل في دمشق بالتدريس، وخدمة الفقراء، ورحل للقدس والخليل والموصل، توفي في دمشق سنة 1169هـ/ 1755م. انظر: المرادي، سلك، ج4، ص115. وكان منزل الشيخ المشار إليه أعلاه في محلة سوق ساروجا.

(8) حسين بن طعمة البيتماني (ت:1175هـ/1760م)، **كشف الالتباس في مسألة السماع**، مخطوط رقم 6609، الظاهرية، مكتبة الأسد، دمشق، ق.ق 98-100. وقد أشار يوسف نعيسة إلى المخطوط دون دقة، مقتبساً من الصفحة 198، علماً أن الرسالة ضمن المجموع تقع في ورقتين فقط. قارن بـ يوسف جميل نعيسة، **مجتمع مدينة دمشق في الفترة ما بين 1186-1256هـ/1771-1840م**، ط10، دار طلاس، 2ج، دمشق، 1986، ج2، ص723.

(9) البيتماني، كشف، ق99أ.

(10) الفرق بين الفتوى والقضاء، حسب رأي الفقيه ابن عابدين (ت 1525هـ/ 1836م) بقوله: "لا فرق بين المفتي والحاكم، إلا أن المفتي مخبر بالحكم والقاضي ملزم به. وعليه فإن الفتوى والقضاء يشتركان بالإخبار عن الحكم، ولكن القضاء يتميز بالإلزام، ومن الفرق أيضاً ما قاله الفقيه القرافي من أن: "العبادات كلها على الإطلاق لا يدخلها القضاء البتة، بل الفُتيا فقط، والقضاء حكم ملزم للخصوم أما الفتوى فهي غير ملزمة". انظر: محمد أمين عمر ابن عابدين (ت: 1252هـ/1836م)، **رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، نسخة مصورة، 1990، ج1، ص10، "مطلب رسم المفتي"، شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي (ت:684هـ/1285م)، **الفروق ومعه إدرار الشروق على أنواع الفروق.** ضبطه خليل منصور، ط1، 1998، دار الكتب العلمية، بيروت، ج8، ص48؛ حسين الملاح، **الفتوى: نشأتها وأصولها**، المكتبة العصرية، بيروت، 1999م، ص400.

(11) انظر: عبدا بن محمد بن علي الخادمي (توفي بعد 909هـ/1503م)، **مناظرة في دمشق الشام مع بعض علمائها**، مخطوط رقم 2345، مكتبة الأسد ، دمشق، ضمن مجموع.ق42.

سامعها أو من المشتغل بها، ألا ترى أن ضرب تلك الآلة بعينها حلّل تارة وحرم أخرى باختلاف النية؟ والأمور بمقاصدها وفيه دليل سادتنا الصوفية الذين يقصدون بسماعها أموراً هم أعلم بها، فلا يبادر المعترض بالإنكار كي لا يحرم بركتهم فانهم السادة الأخيار أمدنا ا بإمداداتهم وأعاد علينا من صالح دعواتهم وبركاتهم"(12).

وفي أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وضع الشيخ الحمصي سعيد بن يحيى بلبل المولود سنة1291هـ/1874م رسالة في أحكام الذكر والسماع، أورد فيها كثيراً من النقولات من كتب التفسير والحديث النبوي وآراء الفقهاء من مختلف المذاهب الإسلامية، تناول فيها القول بإباحة الإنشاد، وضرب الدف والرقص والشبابة والسماع وصفات المنشد(13).

المبحث الثاني: الفنون والتسلية في عادات أهل دمشق

المطلب الأول: مظاهر الفرح والفن في دمشق

تقدم مذكرات الشيخ الدمشقي ابن طوق ملامح اجتماعية ذات صلة بعادات الدمشقيين وأفراحهم وفنون الحياة، وبخاصة تلك التي ترتبط بتقاليد الأعراس، إذ يذكر ابن طوق: "وراحت الزوجة لحمام بنت الشيخ الحمصي، ونامت عندهم حمام العرس، وأرسلت الزوجة ومعها إلف وعفيفة إلى بيت العروس في سدر كبير به نُقل العيد: تمر وزبيب وتين وفستق وبندق ولوز خمسة أرطال وأقراص من الحلوى وسكرية وملبس رطل وعدة عاب، وشقة حرير وأطلاس أحمر على قرمز"(14).

ويبدأ ابن طولون الصالحي (ت: 953هـ/1546م) أخبار سنة 884هـ/ 1479م بذكر حفل عقد قران، يبين في وصفه ما كان جارياً من عادات أهل دمشق، والمهم في هذا الخبر هو الاختيار الذي مارسه ابن طولون وأراد أن يبدأ فيه تاريخه، فمن النادر أن تبدأ حوادث التاريخ عند المؤرخين بذكر الأفراح(15).

---

(12) ابن عابدين، رد المحتار، ج4، ص56. ويمكن مقارنة آراء ابن عابدين بأقوال معاصره الإمام الشوكاني الذي قال في كتابه **نيل الأوطار**: "ذهب أهل المدينة ومن وافقهم من علماء الظاهر، وجماعة الصوفية، إلى الترخيص في الغناء، ولو مع العود واليراع..."، محمد بن علي الشوكاني (ت:1250هـ/1834م)، **نيل الأوطار**، ط1، د.ت، دار الجيل، بيروت، ج 8، ص264-266.

(13) انظر: سعيد بن يحيى بلبل (ت:1378هـ/1958)، **أحكام الذكر والسماع عند الصوفية**، تحقيق فرحان بلبل، ط1، 2002، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ص59، 68.

(14) شهاب الدين أحمد بن محمد ابن طوق، (ت:915هـ/1509)، **التعليق، يوميات شهاب الدين أحمد بن طوق، مذكرات كتبت بدمشق أواخر العهد المملوكي**، 885-908هـ/1480-1502م، تحقيق الشيخ جعفر المهاجر، منشورات المعهد الفرنسي للشرق الأوسط/ قسم الدراسات العربية، 3 أجزاء، دمشق، 2002، 2004، ط1، ج3، ص1422.

(15) يقول ابن طولون: "كان عقد قران بنت زين الدين الهديري على ابن تاج الدين الصلتي، برهان الدين إبراهيم، على مبلغ أشرفية... وأرسل أربع قراريب زجاج أمياه وسكرا، وأباليج ثمرة وشقتين حرير. وعقد مولانا الشيخ تقي الدين خال أبيها بالمشهد بعد صلاة الظهر... وشربوا سكرا"، شمس الدين محمد ابن طولون (ت: 953هـ/1546م)، **مفاكهة الخلان في حوادث الزمان**، تاريخ مصر والشام، جزآن، تحقيق محمد مصطفى، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، 1962، ج1، ص3.

ويظهر في الخبر أن حفل عقد القران تخلله تقديم الماء المحلى في أكواب من الزجاج، إضافة إلى تقديم ثمار البلح. وعند النظر في مادة تاريخ ابن طولون نجد في أخبار شهر جمادى الأولى سنة 926هـ/ 1519م وصفاً لزفة ختان أحد الزعران، وجاء في الوصف: "وفي يوم الاثنين تاسع عشر كانت زفة ختان الولد محمد بن الأزعر أحمد بن قبعية الحائك في الكتان، وكانت هائلة، عزم والده فيها الشباب من حارات دمشق وضواحيها... واجتمعوا بالصالحية عند الجامع المظفر بالعدد الكاملة والأقمشة المفتخرة وأعارتهم الحكام عدة خيول ملبسة، قيل سبعة..."[16].

ويذكر ابن طولون في مفاكهة الخلان أسماء بعض المنشدين ومنهم "الريس أبو الخير الصغير ومحمد الجعيدي[17] والغلام مشهور المنشد"[18]، وإضافة إلى أسماء المنشدين من الرجال، فإن ابن طولون يوثق لنا وفاة "الشيخة الصالحة المصنفة صاحبة النظم الفائق أم عبدالوهاب بنت الباعوني"[19] وفي ذلك إشارة إلى أن النظم والإنشاد لم يكن حكراً على الرجال وحسب.

وذكر ابن طولون في رصده لحوادث مجتمع دمشق تراجم من توفي في كل سنة، ومن ضمن من يذكرهم في حوادث سنة 926هـ/ 1519م الشيخ شهاب الدين أحمد الطواقي (ت: 926هـ/1519م) الدمشقي المتصوف الذي جاء عنه أنه: "توفي مقتولاً عن سن عالية، انفرد بعلم الموسيقى، ورحل بسببه إلى الشرق ،ثم إلى الروم، ثم قطن دمشق، وسكن بمحلة باب السريجة".[20] ويبدو واضحاً أن تعلم الموسيقى والاستزادة منها كانت تتطلب الرحلة، كما يبدو في سيرة الشيخ الطواقي.

ومن تراجم الرجال الذين رصدت وفياتهم وعملوا بالإنشاد والذكر، نجد ذكراً لشيخ الطائفة الصمادية بالشام شمس الدين محمد بن خليل الصمادي المتوفى يوم الجمعة خامس عشر جمادى الأولى سنة 948هـ/1541م[21].

ويذكر ابن طولون أن شيخ الطريقة الصمادية كان في كل سنة "**يقيم مولداً يدعو إليه أعيان الشام وطلبتها وصلحاءها ويمد لهم سماطاً ويكرمهم ويحسن قراهم**". ويبين أن تلك الدعوات كانت تتزامن مع إقامة بعض العادات والفنون التقليدية ومن ذلك قوله: "**واشتهر أمره وأمر آباءه من قبل في دق الطبول عند هيمان الذاكرين وانشداد الذّكر**" ولكن تلك العادات كانت فيما يبدو سبباً في إثارة مواقف العلماء ضدها، ففي خبر وفاة الشيخ، أنه: "أنكر عليهم جماعة، واستفتى شيخ الإسلام شمس الدين ابن حامد الصفدي وشيخ الإسلام تقي الدين

---

(16) ابن طولون، **مفاكهة**، ج2، ص105.
(17) لم اعثر على ترجمه له. وحول الجعيدي انظر المبحث الخامس، **حرف الغناء والتسلية**.
(18) لم اعثر على ترجمة له. ابن طولون، **مفاكهة**، ج2، ص102.
(19) ابن طولون، **مفاكهة**، ج2، ص74.
(20) شمس الدين محمد بن علي بن طولون (ت: 953هـ/1546م)، **حوادث دمشق اليومية**، صفحات مفقودة من كتاب مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق أحمد ايبش، ط1، 2002، دار الأوائل، دمشق، ص110.
(21) ابن طولون، **حوادث دمشق**، 344.

ابن قاضي عجلون، فأفتيا بإباحته قياساً على طبل الحجيج"[22].

وتستمر اليوميات الدمشقية في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي في رصد عادات المجتمع في مجال الفنون، وربما كانت المادة المقدمة عن أفراح أهل دمشق وعاداتهم تعد مصدراً هاما للكشف عن حياة الناس وفنونهم.

يروي محمد بن كنّان الصالحي (ت: 1153هـ/1740) في حوادثه اليومية أخبار جملة من الأعراس والأفراح والسهرات، التي تعكس تقاليد المجتمع الدمشقي وحبه للفنون ورغبته في الإقبال عليها، فترتيب الأعراس كما يبدو مرتبط بانعقاد مجالس السهر للرجال والنساء، ولأيام عديدة يتخللها تقديم الضيافة غير مرة . وفي الوصف الآتي ما يشير إلى ارتباط مجموعة من الحرف بالأعراس، مثل المدخلين، والمولدية وهي حرف مرتبطة بالرقص والإنشاد والغناء، إلى جانب حرف أخرى مرتبطة بالخدمات، ومما جاء في وصف فرح دمشقي في يوم السبت 27 ربيع الأول 1111هـ/1699م:

"...وفي يوم السبت عمل محمد آغا بن سليمان الترجمان فرح يحيى آغا بن طالو، الشاب الخالي العذار، وتكلف كلفة بالغة ودعوا باشة الشام حسن باشا، وقدموا له تقدمة عظيمة مكلفة ما يساوي الثلاثمائة قرش، وأعطى الجاويشية عشرين قرشاً، والمدخل كل واحد ثلاث قروش وكانو سبعة أيضا، وللمشعلية نحو عشرة قروش، والعشية نحو العشرين، والشغالين نحو خمسة، والمولدية نحو خمسة، وعشية للرجال وعشية للنساء، ومكث الفرح سبعة أيام، والضيافة واحدة الظهر والثانية العصر"[23].

ولا يقتصر البديري على ذكر أفراح أبناء الولاة، فهو يذكر العرس الذي أقامه متولي أوقاف الجامع الأموي الشيخ إبراهيم الجباوي (ت:1170هـ/1756م) الذي جاء في وصفه أنه: "أمر أن تزين الأسواق بالقناديل والشمع، وأمر أن تشعل منارات الجامع الأموي فشعلت..."[24].

وترتبط بالفرح الدمشقي عادة الإنشاد التي يتقدم لها أشخاص محددون باعتبارهم رؤساء في صنعتهم، ففي فرح زواج ابن الشيخ علي بن محمد البعلي سنة 1130هـ/1717م دعي علماء دمشق: "وانشد الرئيس الشيخ مصطفى الصالحي قصيدة مطولة للصرصري[25]، ثم أخرى لمولانا محمد أفندي

(22) ابن طولون، **حوادث دمشق**، ص 344.

(23) محمد بن عيسى بن محمد الصالحي ابن كنّان (ت:1153هـ/1740م)، **الحوادث اليومية من تاريخ أحد عشر وألف ومية**، ط1، تحقيق أكرم العلبي، دار الطباع، دمشق 1994، ص23. **وانظر فرح مفتي دمشق حامد أفندي العمادي في أحداث سنة 1126هـ/1714م**، ص223.

(24) البديري، **حوادث**، ص103؛ المرادي، **سلك**، ج1، ص41.

(25) جمال الدين أبو زكريا يحيى بن يوسف، ولد في بغداد سنة 588هـ/1192م، وينسب إلى بلدة صرصر، واستشهد سنة 656هـ/1258م على يد المغول، اشتهر شاعراً صوفياً، له الكثير من المدائح النبوية، وكان عمره يوم وفاته 68 عاماً، انظر: تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقريزي (ت:840هـ/1436م)، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، ط1، 1984، القاهرة، دار نهضة مصر، ج1، ص156؛ صالح مخيمر، **المدائح النبوية بين الصرصري والبوصيري**، ط1، 1986، الدار العربية، عمان، ص23.

العمادي[26]، ثم حضرت الضيافة وهي الماورد والبخور، وانفض المجلس"[27].

وتزينت أسواق دمشق وشوارعها في شهر صفر سنة 1156هـ/1743م في حفل أقيم بسبب ختان ولد الوزير سليمان باشا العظم[28] أحمد بيك وجاءت صورة الحفل كالآتي:

"وكان في الجنينة التي في محلة العمارة، وجمع فيه سائر الملاعب وأرباب الغناء واليهود والنصارى، واجتمع فيه من الأعيان والأكابر من الأفندية والآغوات ما لا يحصى، وأطلق الحرية لأجل الملاعب يلعبون بما شاؤوا من رقص وخلاعة وغير ذلك ولا زالوا على هذه الحالة سبعة أيام بلياليها، وبعد ذلك أمر بالزينة فتزينت أسواق الشام كلها سبعة أيام بإيقاد الشموع والقناديل، زينة ما سمع بمثلها، وعمل موكباً... وفيه الملاعب الغريبة من تمثيل شجعان العرب وغير ذلك، وثاني يوم طهر ولده أحمد بيك وأمر من صدقاته أنه يطهر أولاد الفقراء وغيرهم ممن أراد..."[29].

يكشف النص السابق عن مشاركة اليهود والنصارى في الفرح باعتبارهم من أرباب الغناء، ومثل هذه المشاركة، يمكن لها أن تضيف دورا جديدا لغير المسلمين في المجتمع الدمشقي، فبالرغم من ندرة أخبارهم في الحياة العامة، فإن ظهورهم في الخبر اليومي في هذه المرحلة يفسره أمران، الأول: مرتبط بحالة من الانتعاش في موقع غير المسلمين في المجتمع إبان حكم ولاة آل العظم، وهذا ما تؤكده النظرة الايجابية التي يرى بها

---

(26) هو محمد بن إبراهيم العمادي الحنفي الدمشقي، من أسرة تولت منصب الإفتاء الحنفي، ولد سنة 1076هـ/1665م، قرأ الفقه والنحو والمعاني وأخذ عن شيوخ عصره، وتولى إفتاء الحنفية في دمشق بداية سنة 1121هـ/1709م، توفي في دمشق سنة 1135هـ/1722م. محمد خليل بن علي المرادي (ت:1206هـ/1791م)، **سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر**، ط3، دار ابن حزم، دار البشائر، 4ج، بيروت، 1988، ج4، ص17؛ وانظر ترجمته أيضاً في محمد خليل المرادي، **عرف البشام في من ولي فتوى الشام**، ط2، تحقيق محمد مطيع الحافظ ورياض مراد، دار ابن كثير، دمشق، 1988.

(27) ابن كنّان، **الحوادث**، ص290. وانظر خبر فرح زفاف محمد آغا ابن موسى آغا كاتب العربي في سرايا الشام، في أحداث سنة 1142هـ/1729م، وقد استمر الحفل ثلاثة أيام "آخرها ليلة الجمعة"، ص400. ويلاحظ ذكر ابن كنّان أحيانا عبارة "**ولم يأخذ شيئاً" بمعنى النقوط.** وانظر خبر فرح سي علي بن دعبول الشاغوري، يوم الأربعاء، 11 ربيع الثاني، 1148هـ/1735م وفي الخبر: "ودعا خلقاً كثيراً ولم يأخذ من احد شيئا بعد الكلفة البالغة، وبقي الفرح أياماً"، ابن كنّان **الحوادث**، ص468.

(28) هو سليمان بن إبراهيم العظم (ت: 1156هـ/ 1744م)، كان والياً على طرابلس ثم صار أميراً (لجردة) قافلة الحج، ثم صار واليا على صيد ودمشق ومصر، توفي سنة 1156هـ/ 1743م، انظر: الخوري ميخائيل بريك (ت: بعد 1197هـ/1782م)، **تاريخ الشام** 1720-1782م، ط1، علق عليه قسطنطين الباشا، مطبعة القديس بولس، لبنان، 1930، ص8؛ محمد بن جمعة المقار (ت: بعد 1156هـ/ 1743م)، **الباشاة والقضاة**، نشره صلاح الدين المنجد في: ولاة دمشق في العهد العثماني، دمشق، 1949، ص69؛ رسلان بن يحيى القاري (ت: 1132هـ/1719م)، **الوزراء الذين حكموا دمشق**، نشره صلاح الدين المنجد في: ولاة دمشق في العهد العثماني، دمشق، ص78، 156.

(29) أحمد بن بدير الحلاق البديري (ت: بعد 1175هـ/1762م)، **حوادث دمشق اليومية** (1154-1175هـ/1741-1762م)، ط1، تحقيق أحمد عزت عبد الكريم، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، 1959، ص38.

المؤرخ ميخائيل بريك الدمشقي (ت: بعد 1197هـ/1782م) حقبة ولاة آل العظم[30]. والأمر الثاني: اختصاص عدد من اليهود والنصارى في حرف الغناء والموسيقى، وهو ما تؤكّده إشارة البديري الحلاق في أحداث سنة 1160هـ/1747م التي تبين ورود ثلاثة من يهود حلب إلى دمشق "...لهم مهارة في ضرب الآلات بأحسن النغمات..."[31].

يتصل بمظاهر الفرح والفنون الحفلات الخاصة التي كانت تعقد بمناسبات معينة، وعلى رأسها حفلات الختان، والتهاليل الدمشقية التي يشارك بها المنشدون[32]، ويرتبط البحث عن الفنون بضرورة الكشف عن الآلات الفنية التي كانت موجودة في بيوت الأغنياء، إذ يروي ابن كنّان في معرض وصفه لأحد مقتنيات بيت وجيه دمشقي، أن في بيته "آلة الأرغلا"[33] ومن وسائل الترفيه والتسلية التي يصفها في مجتمعه "صندوق الدنيا الذي جاء من حلب".[34] وأتاح للدمشقيين رؤية بلاد النصارى، ومدن عثمانية مثل أدرنة واسطنبول.

ولا يرتبط تزيين شوارع المدينة بالأفراح والمناسبات الخاصة، بل غدا أشبه بتقليد عند ورود أخبار الانتصارات في الحروب والمواجهات مع خصوم السلطة. يروي البديري الحلاق في حوادث سنة 1159هـ/1746م خبر الانتصار على قوات التركمان في دمشق يقول: "**وكان أعظم خذلان لبيت حسن تركمان قتل منهم خمسة رجال... قد زينت البلاد والمدافع** تضرب صباحاً ومساء مدة شهرين والنوبة مع الألعاب النارية".[35] وإلى جانب الألعاب النارية يذكر البديري عادة "الخروج بالأعلام والمزاهر وطبول الباز"[36].

---

(30) يعتبر ميخائيل بريك الدمشقي أن من أسباب ودواعي تأليفه لتاريخه ظهور مذهب الكاثوليكية و"لأجل انه في هذا الزمان ظهر طائفة من بيت العظم وصاروا وزراء..." بريك، تاريخ الشام، ص2. وتنعكس تلك النظرة في تقييم بريك لحكم أسعد باشا العظم الذي يبدو بريك معجبا به لأنه: "أخذ من حمص نصارى إخوة وهم نعمة ويوسف وعملهم يازجية... وكان حكماً عادلاً غير ظالم غير جزار..."، بريك، **تاريخ**، ص7. وحول حقبة آل العظم انظر:

Abdul -Karim Rafeq, The Province of Damascus 1732-1783, Berouth, 1966, PP 144-160. And see: Shamir, Shimon. Asa'd Basha Al-azm and Ottoman Rule in Damascus 1743-58, "BSOAS", Vol. 26,1963, PP 1-20.

(31) البديري، حوادث، ص95.

(32) حول ترتيب عمل التهليلجي انظر: القاسمي، **قاموس**، ج1، ص112. وعن تهاليل دمشق ووصفها انظر ابن كنّان، **الحوادث**، ص 240، 250، 251.

(33) ابن كنّان، الحوادث، ص137. وهي آلة يونانية قديمة واستمرت في العصور الوسطى وكانت في البداية تصنع من جلود الجواميس ثم صنعت من الخشب على هيئة لوحة مفاتيح، وحين يقوم العازف بالضغط على مفتاح منها يسمح للهواء أن يدخل إلى أنبوب طويل من الخشب فيتذبذب الهواء في الأنبوب محدثاً الصوت الذي يخرج من طرفه الآخر وكان قديماً يسمى الأرغانون ثم صار اسمه الأرغن..." انظر للمزيد: الخوارزمي، **مفاتيح العلوم**، ص241.

(34) ابن كنّان، **الحوادث**، ص97. ويقول ابن كنّان: "وفيه جاء من بلاد حلب صندوق فيه صور البلدان، مثل أدرنة وإسلام بول ودمشق وحلب وغير ذلك، وفي وجه الصندوق مرآة تُنظر فيها تلك الأشكال، فُترى مثل الحقيقة، وإنما هي نقوش، والمرآة تقوي البصر في المرئي، وفيه صور بلاد النصارى والكنائس والأنهار والبحور والجبال."

(35) البديري، **حوادث**، ص70.

(36) يذكر ذلك ابن كنّان في حوادث دمشق سنة 1120هـ/1708م، ص138. وانظر ايضا عند البديري، **حوادث**، ص81، وكان

المطلب الثاني: مظاهر التسلية عند العامة والخاصة

تذكر التواريخ المحلية مصطلحات عديدة للتفريق بين المجاميع السكانية الاجتماعية في دمشق: كأصحاب المقامات الكبيرة[37]، وأهل العرض[38]، وصغار القوم[39]، وبسطاء الناس[40]، والخاص والعام[41]، والأعيان[42]، والعامة[43]، وأكابر الحارات[44].وهذه المصطلحات في مجموعها ترد إلى مواقع ومناسبات مختلفة، وهي رغم استخدامها في أدبيات المرحلة، إلا أنها لا تشكل فصلاً طبيعياً أو فئوياً في جسم المجتمع الدمشقي، لكن عندما نجد إشارة لدى البديري الحلاق مفادها أن الخاص والعام استمعوا لضاربي الآلات، فإن هذا يطرح أسئلة عديدة، منها: هل اختلفت وسائل التسلية والترفية بين هذه الفئات الاجتماعية؟ وهل كان هناك نظرة واحدة لوسائل التسلية؟ بمعنى أكثر وضوحاً، هل نظر العلماء نظرة موازية لنظرة العامة نحو الإقبال على الترفية ووسائل التسلية، أم أن الخاص والعام التقيا وتوحدا معا في وسائل التسلية؟

تزودنا مذكرات ابن كنّان الصالحي بمادة وفيرة حول التسلية في دمشق، وتكشف عن ولع الدمشقيين بالتنزه في البساتين والحدائق والسهر، ولم تكن تلك العادات خالية من الفنون، وغالباً ما كان التنزه في بساتين أو حدائق معروفة بشكل عام أو في مجموعات محددة من الأعيان والعلماء أو بشكل مفرد، إذ يروي ابن كنّان أنه كان يرتاد الحديقة العدوية ويقول:" ولم اصحب أحدا وأحببت الانفراد، وكن الفؤاد من الموارد الظاهرة والباطنة"[45].

ومن مظاهر التسلية العامة عادة "السيران" التي يخرج بها أهل دمشق في مرحلة الدراسة، يذكر البديري في حوادث سنة 1163هـ/1749م ما يظهر بعض الأماكن التي كان يتجه إليها الناس في نزهاتهم من النساء والرجال، فهو يصف ذلك بقوله: "وفي يوم الخميس ثامن عشر ربيع الأول خرجنا إلى سيران بناحية الشرف المطل على المرجة مع بعض أحبابنا وكان الوقت في مبادئ خروج الزهر وجلسنا مطلين على المرجة والتكية السليمانية وإذا بالنساء أكثر من الرجال جالسين على شفير النهر، وهم على أكل وشرب قهوة وتتن"[46].

ويلاحظ في الخبر مشاركة النساء للرجال في هذا النوع من وجوه التسلية، كما يحدد البديري أماكن السيران

سبب الخروج ورود ماء السمرمر الذي يستخدم في مكافحة الجراد الذي هاجم دمشق ومناطق من حوران سنة 1159هـ/1746م.

(37) البديري، **حوادث**، ص12، 163، 25.

(38) البديري، **حوادث**، ص 214.

(39) مجهول، **تراجم بعض الأعلام**، ق 12ظ؛ البديري، **حوادث**، ص57-59.

(40) المرادي، **سلك**، ص47، 245.

(41) البديري، **حوادث**، ص 39، 63، 82، 95.

(42) مجهول، **تراجم بعض الأعلام**، ق 14ظ.

(43) رسلان القاري، **الوزراء**، ص79؛ الدكدكجي، **مجموع مسانيد**، ق14ظ؛ ابن كنّان، **الحوادث**، ص419.

(44) البديري، **حوادث**، ص50.

(45) ابن كنّان، **الحوادث**، ص498.

(46) البديري، **حوادث**، ص140.

التي اقتربت من الأنهار ومجاري المياه فيما يبدو، ويظهر أن التدخين والأكل والشرب كان من مكملات ذلك النوع من الأنشطة.

وهناك المجالس والنزهات التي كانت خاصة بمجموعة من العلماء، ويتم الدعوة والإعداد لها بشكل يجعل لها طقوسها الخاصة، ومن ذلك ما يرويه ابن كنّان حين يقول: "وفي ذلك اليوم دعانا بعض الأصحاب إلى بستان يقال له بستان ابن القرندس، وكان في أيام الزهر"[47] وقد يذكر اسم صاحب الدعوة[48] ويحدد ابن كنّان في بعض الأخبار اسماء المدعوين[49]. ويذكر مشاركة بعض التجار في تلك الدعوات "السيران" إلى جانب العلماء، ومن ذلك الدعوة التي وجهت للمؤرخ ابن كنّان ومعه مجموعة من الأصحاب، يقول عنها:" وفي يوم السبت كنّا مع جماعة من الأصحاب ونخبة من الأحباب في قصر ابن برويز بالجسر الأبيض، دعانا للسير المذكورالسيد محمد الخواجا السفار، وكان بعض التجار، ومن الأفاضل الشيخ عبدالرحمن الصناديقي، والشيخ أبو المواهب الحنبلي (ت:1126هـ/1714م) المفتي ونظمت في ذلك المكان نظماً"[50].

لم تخلُ تلك النزهات التي يسهب ابن كنّان برصدها في مذكراته[51] من الفنون والمذاكرات الفنية ويحضرها: "من هم من أهل الفضل والظرف والشعر والبراعة والمشاركة في الفنون على جانب عظيم"[52]، ومع الأشعار والإنشاد تكون المذاكرة في الموسيقى حاضرة، يقول ابن كنّان: "وكنا في بستان الباشا شمالي جامع السادات ومعنا العالم الأمجد حسن المغربل وتذاكرنا في علوم عديدة في الاعراب والموسيقى والعروض ونظمنا..."[53]

وتظهر مادة ابن كنّان عادات السهر الدمشقية وثقافتها، فهو يروي أسماء من يحضر ومن يشارك، ويبدو أن سهرات الدمشقيين كانت تمتاز بطول الوقت، فهو يقول في وصف إحدى السهرات: "وكانت السهرة نحو ثماني ساعات، وانشد الشيخ مصطفى جلبي الصالحي بصوته الطيب قصيدة بارعة، جواهر فنونها ساطعة، فأطرب المجلس طرباً وانحاز السأم عنا سرباً فاهتز المجلس اهتزاز النشوان، وأطرب القلب حتى كاد يهيم طيران، وكان الجلوس بقاعة غناء مسبوغة بمحاسن الألوان...الخ" وفي نهاية وصف المجلس يأخذ بوصف المكان الذي اجتمع فيه الحضور[54].

(47) ابن كنّان، **الحوادث**، ص139.

(48) يقول ابن كنّان: وفي ثالث عشر شهر شعبان كنا في الصالحية بحاكورة الرومي مع صاحبنا صادق آغا أرسل الينا إلى المسير عنده، **الحوادث**، ص143.

(49) ابن كنّان، **الحوادث**، ص149: "وفيه كنا في سير لبعض اصحابنا بقصر حسين باشا المطل على بانياس وكان معنا من الأصحاب عبدالرحيم جلبي الجوخي ومحمد جلبي الأطرقلي وعلي آغا الرومي...الخ".

(50) ابن كنّان، **الحوادث**، ص499.

(51) ابن كنّان، **الحوادث**، ص267، 269 (نزهة تضم علماء دمشق وطلبتها)، 327، 328، 362، 367، 383، 433،384.

(52) ابن كنّان، **الحوادث**، ص241.

(53) ابن كنّان، **الحوادث**، ص453.

(54) ابن كنّان، **الحوادث**، ص296.

تبدو أخبار ابن كنّان أخباراً منحازة إلى الأعيان أو النخبة، وهذا مرده إلى انتمائه إلى إحدى الطرق الصوفية وكونه واحداً من فئة المدرسين وشيوخ الصوفية، فيما تغيب هذه الأخبار عن يوميات البديري التي يطغى عليها الطابع الشعبي، وهو ما تعكسه مادته التاريخية عن أحداث عصره، وبخاصة وصفه لمظاهر التسلية والفنون، التي يتضح فيها قربه من السوق وفعالياته، وهذا ما يبدو جليا في عرضه لأخبار بنات الهوى والجواري والمقاهي التي يرويها من باب النقد والشكوى أحيانا.

المطلب الثالث: بنات الهوى والجواري والغلمان

في كتب اليوميات، يبدو الأغنياء منعمين بخدمة الجواري، والفقراء صابرين، وفيها يفرض رسم على بنات الهوى، وحديث عن أشهر المحظيات عند الولاة ونوادر بنات الهوى، ويلاحظ أن أخبارهن تذكر ويتبعها الشكوى من الغلاء ووقوف الأسعار، فمن جملة ما يرويه البديري في أحداث سنة 1157هـ/1744م قوله: "وفي تلك الأيام كثرت بنات الخطا يتبهرجن بالليل والنهار، فخرج قاضي الشام بعد العصر إلى الصالحية، فصادف امرأة من بنات الخطا تسمى سلمون، وهي تعربد في الطريق وهي سكرى مكشوفة الوجه... فصاح جماعة القاضي عليها أن ميلي عن الطريق، هذا القاضي، فضحكت وهجمت على القاضي...وأرسلوا مناديا ينادي كل من رأى بنتا من بنات الخطا يخرجها...مع الغلاء ووقوف الأسعار"[(55)].

تقترن أخبار بنات الهوى بالفساد والظلم وانعدام الأمن، وغياب مفهوم "النهي عن المنكر" وهذا ما تعكسه حادثة طريفة ارتبطت بحكاية عشق بين واحدة من بنات الهوى وغلام من الأتراك، حدث ذلك سنة 1161هـ/1748م وجاء خبر الحادثة عند البديري:

"...في تلك الأيام زاد الفساد وظلمت العباد وكثرت بنات الهوى في الأسواق في الليل والنهار، ومما اتفق في حكم أسعد باشا - المقصود أسعد باشا العظم- أن واحدة من بنات الهوى عشقت غلاماً من الأتراك فمرض، فنذرت على نفسها إن عوفي من مرضه لتقرأن له مولداً عند الشيخ رسلان، وبعد أيام عوفي من مرضه فجمعت شلكات البلد وهن المومسات ومشين في أسواق الشام، وهن حاملات الشموع والقناديل والمباخر وهن يغنّين ويصفقن بالكفوف ويدققن بالدفوف والناس وقوف صفوف وهن مكشوفات الوجوه...وما ثم ناكر لهذا المنكر، والصالحون يرفعون أصواتهم ويقولون ا اكبر."[(56)]

ويلاحظ في الخبر أن هناك تقاليد خاصة "بالمومسات" وأنهن كُن يخرجن إلى الأسواق في مواكب خاصة، وهذا ما جعل البديري يعد مثل ذلك السلوك أمراً منافياً للأخلاق العامة. ويبدو أن تمادي بنات الهوى في السنة التالية- 1162هـ/1748م- لتلك الحادثة، وظهورهن في شوارع المدينة بشكل مناف للأخلاق، كان سببا في مناداة الحاكم بضرورة إخراج بنات الهوى، والتنبيه على مشايخ الحارات "...أن من وجِد في حارته ذو شبهة لا

(55) البديري، **حوادث**، ص56.

(56) البديري، **حوادث**، ص112.

يلومن إلا نفسه..." غير أن هذا التشديد في ضرورة إخراج بنات الهوى، لم يصمد طويلاً، وانتهى بالترخيص لهن بممارسة نشاطهن مقابل دفع ضريبة مالية أو رسم يدفع كل شهر، كما جعل عليهن قوة عسكرية يقودها "الشوباصي"، إذ يتابع البديري خبره بالقول: "وما بقي التشديد غير جملة أيام، إلا وقد رأينا البنات المذكورات يمشين كعادتهن في الأزقة والأسواق وأزيد، ورجعن إلى البلاد ورتب الحاكم عليهن في كل شهر على كل واحدة عشرة غروش وجعل عليهن شوباصيا.."[57]

ويشير البديري الحلاق إلى وجود المحظيات والسرايا والجواري عند أعيان دمشق، فهو يذكر أن سليمان باشا العظم كان "يملك سرية مقدمة على غيرها من الجواري تسمى زهرا"[58]، وتمدنا وثائق السجل الشرعي بعدد من الحجج الخاصة بالجواري وغالبها في قضايا العتق[59].

ويعرض المؤرخ محمد خليل المرادي لظاهرة اجتماعية مرتبطة بالعلماء وتتمثل بعلاقة بعض الشيوخ وأهل الأدب مع التلاميذ في صورة بدت عند المرادي غير محببة إليه وهي عشق الغلمان[60].

المبحث الثالث: فنون بيوت القهوة

أثار دخول القهوة مدينة دمشق مطلع القرن السادس عشر الميلادي/العاشر الهجري الجدل الفقهي حولها[61]. وتُظهر لنا مذاكرة فقهية جرت بين علماء دمشق الشام أن الجدل حول مشروعيتها وحرمتها انحصر في أربعة أقوال وهي حسب مخطوط محمد الخادمي: "طال الخلاف في القهوة على أربعة، حلها وحرمتها وطهارتها ونجاستها"[62].

يختم ابن طولون حوادث دمشق بتصوير الجدل الدائر حول انتشار عادة شرب القهوة، التي يبدو أنها بدت آنذاك، عادة أثارت موقف فقهاء الشريعة، مما دعا قاضي دمشق إلى إبطالها. يقول:

"...**ونادى القاضي الكبير يوسف بن حسام الدين الرومي على الدكاكين بإبطال شرب القهوة لا بجمعية وغناء وإدارة الزبادي الصيني والكشف عليهم غفلة ثم أنه لما كبسهم فوجدهم في الدكاكين على الهيئة**

---

(57) البديري، **حوادث**، ص134، والشوباصي هو رئيس لعدد من الجند للمحافظة على الأمن.

(58) البديري، **حوادث**، ص58.

(59) سجل 139، حجة 258، ص112، 29 شعبان 1116هـ/1752م؛ سجل 115، حجة 246، ص144، 10 شعبان 1159هـ/1746م (لدى مولانا اشهد اسعد بن محمد المنير... على عتق جاريته العاملة عنده..)؛ سجل 150، حجة 244، ص75، 29 من ذي القعدة 1170هـ/1756م (قضية عتق جارية الشيخ خليل الصديقي...).

(60) المرادي، **سلك**، ج4، ص51. ويذكر هنا أن الشيخ ابن قدامة المقدسي طالب العلماء "بعدم مجالسة أولاد الأغنياء لكونهم يبدون أحيانا في صور أقرب إلى النساء"، ابن قدامة، **فتيا في ذم الشبابة**، ص28.

(61) حول القهوة في الحضارة العربية الإسلامية انظر: K.N.Chaudhuri, "KAHWA" E.I.2.Vol .IV, PP. 449-455.

(62) عبدا الخادمي، (توفي بعد 909هـ/1503م) مناظرة علماء دمشق في أمر القهوة، مخطوط رقم3254، مكتبة الاسد، دمشق، ضمن مجموع، ق1.

المذكورة فضرب كل من وجده في الدكاكين علقة..".[63]

يكشف نص ابن طولون عن انتشار عادة تناول القهوة في أكثر من مكان، ويذكر محمد الارناؤوط أن حوانيت القهوة بدأت تبيع القهوة خارج البيوت سنة 948هـ/1540م[64]، وترى بريجيت مارينو أن أقدم مقهى شُيد في دمشق هو الذي بناه مراد باشا وضمنه ضمن وقفه عام 1003هـ/ 1595م قرب الجامع الأموي[65]، فيما يرى محمد الأرناؤوط استناداً إلى وقفية أحمد باشا[66] أن تأسيس المقاهي سبق ذلك التاريخ وحدد موقع المقهى في سوق الأروام[67]، كما أوقف سنان باشا ثلاثة مقاه على منشآت دينية يقع اثنان منها في حي العمارة[68] وثالث في حي باب مصلى[69] جنوب دمشق[70].

المطلب الأول: انتشار المقاهي وبنيتها

بالرغم من الجدل الذي أثير حول مشروعية القهوة أو عدمها في القرن السادس عشر، إلا أن وجود عدد من المقاهي في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، يدل على أن المقهى بات جزءاً من فعاليات السوق والمرافق العامة في دمشق، وظهر بصفته مرفقاً عاماً يرتاده الناس للترويح والترفيه عن أنفسهم. وقد

---

(63) ابن طولون، **حوادث دمشق**، ص357، وحول الجدل الدائر آنذاك يسرد ابن طولون مواقف الفقهاء في دمشق والحجاز من القهوة والأحكام الصادرة بحقها، ص 358-362. وحول انتشار القهوة اليمنية في دمشق مطلع القرن السادس عشر، انظر كتاب: Ralph S. Hattox, Coffee and Coffee Houses: The Origins of Social Beverage in the Medieval Near East, Seattle, 1985.

(64) حول القهوة في دمشق وبيعها وانتشارها انظر: محمد الارناؤوط، **معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن السادس عشر**، وقفية سنان باشا، 1993، دمشق، دار الحصاد، ط1، ص101.

(65) بريجيت مارينو، مقاهي دمشق وأصحابها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مجلة **دراسات تاريخية**، العددان 79-80، كانون الأول 2002، ص222.

(66) كان أحمد باشا والياً على دمشق، سنة 944هـ/1537، وبنى التكية الأحمدية، انظر: دوروتيه زاك، **تطور وبنيان مدينة مشرقية إسلامية**، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، ترجمة قاسم طوير، مراجعة نزيه الكواكبي، ط1، 2005، دمشق، ص137.

(67) عرف أيضاً بسوق السباهية، شيد السوق في سنة 962هـ/1554م، وتوسع وعرف فيما بعد بسوق الجديد، وكانت التوسعة سنة 1195هـ/1781م. انظر: زاك، **تطور وبنيان**، ص137.

(68) كان حي العمارة الذي يقع إلى الشرق من الجامع الأموي في القرن السابع عشر أحد الأحياء التي تقع داخل السور، وفي القرن التاسع عشر امتد الحي وفاض بالبناء إلى خارج السور فصار الجزء الخارجي يعرف بالعمارة البرانية وهي اليوم تقع بين السور القديم وشارع الملك فيصل، فيما عرف الجزء الداخلي بالعمارة الجوانية، انظر: دوروتيه زاك، **تطور وبنيان**، الخارطة المرفقة. وانظر نعيسة، **مجتمع مدينة دمشق**، ج1، ص79.

(69) باب مصلى يبدأ منه شارع الميدان جنوباً وينتهي بباب ا ، وهو بداية لما سمي فيما بعد بحي الميدان الذي كان في القرن السادس عشر يضم ميدان الحصى والميدان الأخضر وباب مصلى، انظر: دوروتيه زاك، **تطور وبنيان مدينة مشرقية إسلامية**، ص103-104.

(70) محمد الأرناؤوط، **معطيات**، ص23-33.

شكلت مع مرور الزمن ثقافة خاصة بها[71]، واشتهر من المقاهي في تلك المرحلة قهوة خبيني "الواقعة في بستان الشرف المطل على المرجة"[72]، وقهوة الخزارية في محلة القنوات وقهوة المناخلية[73].

ويبدو أن تشييد المقاهي ووقفها استمر في مرحلة الدراسة؛ إذ يشير البديري إلى أن من جملة مبرات فتحي الدفتري (ت:1159هـ/1746م) وحسناته تعميره ووقفه قهوة لا يحدد مكانها[74]، وفي خبر آخر يشير البديري إلى وجود مقهى خلف الجامع الأموي دون ذكر لاسمه[75]، وهناك مقهى آخر في سوق الخيل، يفهم من إشارة البديري أن الأكراد كانوا يرتادونه[76].

وعندما يذكر البديري الحلاق أبرز الأعمال والإنشاءات في عهد أسعد باشا العظم فإنه يتحدث عن عمارة مجموعة من المقاهي ومنها "قهوة الشاغور" ويضيف: "وبتلك الأيام عمرت أيضاً قهوتان بباب السريجة وقهوة أمام باب مصلى"[77]، ويبدو أن الأوقاف مثلت مصدراً ممولاً لبناء المقاهي، سواء من قبل الولاة أو الأعيان، ويلاحظ أن غالبية المقاهي شيدت في الأسواق أو في داخل المدينة وعند أبوابها القديمة.

تستمر المقاهي في الانتشار في القرن التاسع عشر، وبحسب دراسة تيسير الزواهرة فإن عددها زاد، وانتشرت في عدد كبير من محلات دمشق[78]. ويلاحظ الزواهرة أن ملاك المقاهي كانوا في تلك المرحلة من كبار الأعيان[79].

يبدو المقهى بناء ذكورياً بامتياز من حيث البنية، وقد ارتاده الدمشقيون للترفيه والتسلية، وهو إما أن يكون عاماً مفتوحاً في حديقة أو "جنينة" أو ساحة عامة كما هو حال "مقهى خبيني" خلال مرحلة الدراسة[80] وإما أن يكون عبارة عن بناء مغلق كما هو حال المقاهي التي انتشرت في الأسواق العامة وخلف الجامع الأموي وما زال بعضها عاملاً حتى اليوم.

---

(71) حول ثقافة الترفيه في الحضارة العربية وأثرها في الغناء والموسيقى انظر دراسة الشرمان، "**ثقافة الترفيه**"، مصدر سابق.

(72) ابن كنّان، **الحوادث**، ص431، ومكان القهوة اليوم في ساحة الحجاز تقريبا.

(73) انظر حول المقاهي والمجالس الشعبية: مهند مبيضين، **أهل القلم ودورهم في الحياة الثقافية في مدينة دمشق في المرحلة 1121-1172هـ/1708-1758م**. منشورات المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، وزارة الخارجية الفرنسية، قسم الدراسات العربية، دمشق، 2005، ص193-197.

(74) البديري، **حوادث**، ص80

(75) البديري، **حوادث**، ص134. ويشار إلى أن هناك مقهى خلف الجامع الأموي اليوم يعرف باسم مقهى النوفرة ويوجد مقهى آخر مقابل للجدار الشرقي للجامع يمسى مقهى خبيني أيضا.

(76) البديري، **حوادث**، ص185.

(77) تقع قهوة الشاغور مقابل ضريح الشيخ السروجي. البديري، **حوادث**، ص190.

(78) من المحلات التي وجدت فيها المقاهي في القرن التاسع عشر، بحسب دراسة الزواهرة، محلة مأذنة الشحم ومحلة باب مصلى والصالحية والميدان والقيمرية التي وجد فيها أكثر من مقهى ومحلة باب الجورة والشاغور وباب توما وسوق ساروجا، انظر: تيسير خليل الزواهرة، **تاريخ الحياة الاجتماعية في لواء دمشق من 1840-1864م/1255-1282هـ**، منشورات جامعة مؤتة، الكرك، 1995، ص74-75.

(79) الزواهرة، **تاريخ**، ص74.

(80) انظر المطلب السابق: انتشار المقاهي، وهامش رقم 78.

المطلب الثاني: ثقافة التسلية وفنون المقاهي

توفر المقاهي مدخلاً لدراسة الفنون الشعبية، لارتباطها بعادات وتقاليد تزامنت مع تقديم القهوة فيها وفي الجلسات العامة، أو من الحرف والصنائع التي عدت جزءاً من عملها وعلى رأسها صنعة الحكواتي، التي لا زالت مستمرة إلى اليوم.

كانت التسلية تتم بلعب المنقلة أو الورق، ويرافق ذلك سماع القصص الشعبي، وشرب القهوة والشاي(81). ويشير القاسمي في قاموس الصناعات الشامية إلى أن شخصية القهوجي في المقهى توصف بوصف يتعدى كونه "قيم القهوة ومديرها" إلى ما يجعله إحدى الشخصيات المساهمة في الترفيه والتسلية في مجتمع المدينة(82).

تُعد شخصية الحكواتي من الناحية الفنية والثقافية، من أهم الشخصيات العاملة في المقاهي ولها دور رئيس في إدارة المقهى، إذ يلزمه لمثل هذه المهنة أن يكون حافظاً للقصص، والملاحم والسير البطولية من التراث(83).

يبرز من حكواتيي دمشق خلال مرحلة الدراسة، سليمان بن حشيش الحكواتي(ت:1155هـ/1742م) الذي يبدو أنه كان ملماً بأكثر من لغة وحظي باحترام المؤرخ البديري، وأطلق عليه صفة المربي، إلى جانب احترافه فن الحكاية بخلفية صوفية، ومما جاء عنه: "توفي أبونا ووالدنا واستاذنا ومربينا سليمان بن الحشيش الحكواتي، كان فريد عصره ووحيد أوانه، وكان يحكي سيرة الظاهر وعنترة وسيف ونوادر غريبة في التركي والعربي..."(84).

أما النموذج الآخر، فهو الذي يجتمع في ثقافته الإلمام بالشعر، وفهم أسرار البلاغة، وحفظ أوراد المتصوفة، ويمثله أحمد بن عمـر الحكواتي الحموي (ت: 1193هـ/1780م)، الذي يوصف بأنه: "...نظم الأشعار والأزجال والموشحات والقصائد، وعمل في الكيمياء، ثم لازم المتصوفة، وقرأ الدروس الخاصة في بيته، إلى جانب عمله في بيوت القهوة مع إبداء النوادر واللطائف.."(85).

وإلى جانب الحكواتي يوجد ضاربو الآلات الموسيقية، الذين يتضح أنهم انتشروا في مقاهي دمشق وسمعهم

---

(81) المصدر نفسه، ص57.

(82) بالرغم من أن نص القاسمي متأخر نسبياً عن فترة الدراسة إلا انه يؤشر على طبيعة دور المقاهي كمرافق للتسلية والترفية والفنون الشعبية، يقول في وصف مهنة القهوجي: "ثم ان القهوجي يحتاج إلى أشياء لايتم أمر القهوة إلا بها، وهي عدة القهوة كنبات وكراس وطاولات، مع اصناف الملاهي من نرد وضومنا وشدة ورق وياردو... وتقديم الأراكيل لمن يرغب الشرب بها..." القاسمي، **قاموس،** ج2، ص367.

(83) سجل شرعي 130، حجة 551، ص273، 15 جمادى الآخرة 1162هـ/1750م؛ البديري، **حوادث،** ص86، 181، 145، نعمان قساطلي، **الروضة الغناء في دمشق الفيحاء،** بيروت، ط1، 1879، ص110؛ القاسمي، **قاموس،** ج2، ص299. وانظر: مارينو، **مقاهي،** ص234.

(84) البديري، **حوادث،** ص34. ويشير البديري إلى أنهم قدموا من حلب وكانوا من اليهود.

(85) المرادي، **سلك،** ج2، ص155؛ القاسمي، **قاموس،** ج1، ص112، وانظر سجل 143، حجة 732، ص426، 15 ربيع الأول 1134هـ/1721م "ادعاء الحاج مصطفى بن فتح ا الحكواتي على ابنه".

العامة والخاصة وكان منهم اليهود والنصارى[86]. ويشار إلى انتشار عادة شرب "الأركيلة" في مرحلة الدراسة وظهر التغزل "بالاركيلة" في الشعر العامي، وهذا ما يظهر في قصيدة عامية نظمها مجهول وأرخت في عام 1178هـ-1764م ومما جاء فيها: **[الوافر]**

ومن ما سورة الدخان أضحى　　　فؤادي هايما صافي الطرية
هممت بها وهمت بي وكنـا　　　إذا ما نحن سرنا بالسوية
ورأس مذهب في لـون تبـر　　　من التنباك والنار التقيه[87]

أحيط ارتياد المقاهي بنظرتين في مصادر الدراسة، الأولى رأت أن جلوس العلماء فيها يزيل الهيبة بسبب الاختلاط بالعامة، والثانية رأت أن جلوسهم في المقاهي يظهر التقرب من العامة ويدلل على تواضعهم، وهاتان النظرتان تكشف عنهما ترجمة الشيخ إبراهيم الجباوي الذي عبر المرادي عن جلوسه في حوانيت القهوة ومخالطته العامة، بقوله: "وكان يدور معهم في الشوارع مما أزال الاعتبار وهيبة المدرسين عنه"[88]، في حين يرى البديري أنه كان متواضعا قريبا من العامة[89].

وفي مقابل النظر إلى المقاهي على أنها وسيلة تسلية وترفيه للناس، نُظر إليها أيضا باعتبارها مصدراً للفوضى وانعدام الأمن، ويبدو أنه في لحظات فلتان الأمن كانت المقاهي الخاسر الأكبر لأنها تعرضت إلى الإغلاق في أكثر من حالة، يقول البديري: " ...نادى أسعد باشا حاكم الشام أن كل من شرب القهوة شنق وصلب ثم أمر برفعها من سائر قهاوي الشام وأسواقها.."[90].

المبحث الرابع: أهل الغناء في كتب التراجم

تقدم التراجم العامة لأعيان القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي بعض السير التي اهتمت بالموسيقى والغناء والصوت، وترصد بعض الموهوبين في الغناء والموسيقى، وإذا كان الخبر عن الشيخ الموسيقي شهاب الدين أحمد الطواقي (ت: 926هـ/1519م) جاء مقتضبا[91]، وأشار إلى رحلته للشرق من اجل تعلم الموسيقى، فإن تراجم ذلك القرن تسمح بإجراء دراسة أوسع للسير التي أولت الموسيقى اهتمامها، مما يساعد في الكشف عن تكوينها الثقافي.

(86) البديري، **حوادث**، ص95.
(87) مجهول، **قصيدة في مدح الأركيلة**، مخطوط رقم 6945/3884، الظاهرية، مكتبة الأسد، دمشق، ق34ب، والقصيدة في 28 بيتا.
(88) المرادي، **سلك**، ج1، ص42.
(89) البديري، **حوادث**، ص193، حيث لا يظهر البديري أية مؤاخذه للشيخ الجباوي في جلوسه في المقاهي. وحول آل الجباوي انظر: ابن كنّان، **الحوادث**، ص498.
(90) البديري، **حوادث**، ص130. وقارن مع ابن طولون، **حوادث دمشق**، ص357.
(91) ورد ذكره سابقا، انظر هامش رقم 23.

تُعد سيرة عمر بن شاهين الحنفي الحلبي (ت:1183هـ/1769م) أحد النماذج لسير موسيقي القرن الثامن عشر، بحسب ترجمته، فهو ابن جندي ولد في حلب سنة 1107هـ/1695م، من أسرة شريفة، لذا فقد نشأ في بيئة دينية تعلم فيها القرآن "على يد المقرئ الشهير الشيخ عامر المصري، ومن بعده قرأ على شيخ القراء عمر المصري، ختماً كاملاً بالتجويد والتحقيق وحفظ القرآن"[(92)].

تعلم عمر شاهين فن التجويد، وفي رواية سيرته أنه كان: "يصحب الشيخ عمر المصري مراراً ويتدارس معه ويعلمه كيفية القراءة بالألحان مع مراعاة التجويد ودرس على شيوخ عصره في علوم الفقه والتفسير والحديث، وأجيز بالقراءة والإقراء، وجلس يعلم الناس فن التجويد بعد صلاة الصبح في جامع الوزير عثمان في مدينة حلب، وحصل له مشقة الأتراك الغرباء لأنه يعدل ألسنتهم في مخارج الحروف والنطق ويزدحمون عليه"[(93)].

وتعكس ترجمة عمر بن شاهين أهمية العناية بالصوت وطبقاته في الثقافة الشامية وبخاصة في مدينة حلب، أما ترجمة صالح بن ابراهيم المزور (ت:1152هـ/1739م) فتتعدى مجال التجويد، إلى مساحة أخرى وهي التلحين، فقد جاء في سيرته أنه كان خطيب جامع السليمانية في صالحية دمشق، وكان بارعاً في الأدب، حسن الصوت لطيف العشرة ماهراً في الموسيقى والألحان وله شعر حسن، وقد وصفه شيخه وصديقه المؤرخ محمد أمين المحبي (ت:1111هـ/1699) بقوله: "يحل في القلوب بلطفه محل الروح من الجسد وتتحاسد عليه العيون والآذان فكأنما خلق لأجله الحسد، وله أدب وسليقة، تحلى بحسن خلق وخليقة... وصوت يدعو القلوب قسراً إلى صبوته وولوعه، وشعره عليه مسحة الحسن، يوقظ بغرامياته الجفون الوسن"، ومن شعره الملحن قوله: [البسيط]

يا عين لا تهجعي فالسعد وافاك	**وزار من تعشـ ـقي ليلاً وحيـاك**
مليحـ ـةٌ صاغها نوراً مصوره	**فأفـتنت كـ ـل ذي رأيٍ وإدراك**
تعلـ ـم الـسحر هاروت وأتقنه	**من لحظها حين أرماه بإشـ ـراك**
كم عاشق ضل في دعج الذوائبِ قد	**أهداه نُور صباحٍ من محيـ ـ ـاك**
حويتَ جنةَ حسنٍ في الخدود علا	**من فوقها عرش شعرٍ جل عن حاكي**

ومن شعره المغنى قوله: [الطويل]

غدا خالُـه رب الجمـال لأنـه	**على عرش خد فوقَ كرسيه استوى**
وأرسل رسلاً من لحاظ أعزة	**على فترة تدعو الأنام إلى الهوى**

(92) المرادي، **سلك**، ج3، ص176.

(93) المصدر نفسه، ج4، ص177.

ومما قاله في الغزل: [البسيط]

وكنز ثغر حصينٍ بالـعقيق حوى — جواهـراً نُظِـمتْ مـن غير أسلاك

يا طلعةَ البدر يا شمس النهار ويا — غصن الرياض وذاتَ المبسم الزاكي

تا _ لا أبتغي خـ ـلاً يسامرنـي — يا ظبيـة أسـرتني عيـن لـقياك

لا سامح ا عذالاً لـَنا عـ ـذلوا — لو عاينوا لغدوا من بعض أسراك[94]

ومن المغنين في القرن الثامن عشر الشيخ سعيد السمان الدمشقي الشافعي (ت:1172هـ/1758م) الذي عرف عنه أنه:" كان عارفا أديبا ماهرا سميدعا أحد المجيدين صناعة الإنشاء والنظم والمعرفة والألحان وعلم الموسيقى بحسن الصوت والأداء."[95]

وصنف محمد بـن إبراهيـم الدكدكجي (ت: 1131هـ/1719) فـي هذا اللون من الكتابـة التاريخيـة، قطعـة فـي تراجـم رجـال الطريقة الشاذلية، ذكر فيها مناقبهـم[96] ومشايخهـم وساداتهـم[97]، ومجالس ذكرهم[98]، مع الاهتمام بإبراز محبتهم للناس[99]، وفضلهم في الدنيا[100]، وختمها في فضل الطريقة الشاذلية وسند اتصال رجالها بها.

ولم يقتصر التأليف بهذا الباب على سير العلماء والأدباء والمتصوفة، إذ امتد ليشمل مؤدي الألحان ومنشدي الخلوات ورؤساء المؤذنين؛ إذ ألف الموسيقي الشيخ محمد بن أحمد الكنجي (ت: أواخر القرن 12هـ/18م)[101] كتاب "بلوغ المنى في تراجم أهل الغنا"، ترجم فيه لفئة واسعة من مؤدي الألحان والمدائح[102]، إلى جانب المؤذنين وضاربي الآلات الموسيقية[103] والملحنين[104]، وألحق بهم أصحاب الطرائف والنكت، وغيرهم ممن لم تحفل كتب التراجم الأخرى بذكرهم.

---

(94) المرادي، **سلك**، ج2، ص203.

(95) المرادي، **سلك**، ج2، ص141.

(96) محمد بن إبراهيم التركماني الدمشقي الدكدكجي، (ت:1130هـ/1719م)، **قطعة في طبقات الصوفية فيها تراجم رجال الشاذلية**، مخطوط رقم 9273، ق-ق: 52-73، ق 2ظ.

(97) الدكدكجي، **طبقات**، ق 5 و.

(98) المصدر نفسه، ق 7 ظ.

(99) الدكدكجي، **طبقات**، ق 10 و.

(100) المصدر نفسه، ق 11 ظ، ق 3 و.

(101) محمد بن أحمد الكنجي (ت: أواخر القرن 12هـ/18م)، **بلوغ المنى في تراجم أهل الغنا**، تحقيق رياض مراد، دار المعرفة، دمشق، 1988.

(102) الكنجي، **بلوغ**، ص31 – 33.

(103) المصدر نفسه، ص36 – 44.

(104) المصدر نفسه، ص47 – 49.

تكمن قيمة هذا الأثر، في كشفه عن أسماء أصحاب التراجم الواردة وألقابهم مثل: "حسن استر جمالك"[105]، ومحمد أبو كلثوم[106]، وإبراهيم الغزالة[107]. "كما أنه أتاح لنا معرفة نوعية الشعر والقصائد التي تناولها المنشدون والمغنون في غير مناسبة"[108].

ويتميز هذا المصنف بالإكثار من السجع، واستخدام المحسنات البديعية واللفظية في كتابة الترجمة مما أضعف مادة الترجمة التاريخية، هذا إلى جانب إهمال المؤلف تحديد وفاة المترجم له، مما قلل من سوية هذا الجهد، إلا أن قيمته التي يحتفظ بها، تكمن في اختصاصه بفئة أهملتها المصادر الأخرى.

أما بناء ترجمة المغني، فقد سار الكنجي على نهج الشهاب الخفاجـي (ت: 1069هـ/1658م) في الريحانة[109]، والأمين المحبي في النفحة[110]، وسعيد السلمان فـي ذيلها[111]، وهو ما يظهر تأثره بهذا النوع من التراجم، الذي يعكس خلفيته الثقافية والمعرفية[112].

المبحث الخامس: حرفُ الغناء والتسلية

تكشف وثائق سجلات المحاكم الشرعية وقاموس الصناعات الشامية عن حرف متعددة ترتبط بالفنون الدمشقية، التي وجدت في المناسبات الدينية والأفراح اليومية سبباً للرزق، أو تلك التي عدت جزءاً من عمل بعض المرافق وبخاصة المقاهي، ويستدل من وثائق المحاكم الشرعية على وجود طوائف خاصة بهذه الحرف، كما يوضح الوصف الذي يقدمه قاموس الصناعات الشامية طبيعة عمل تلك الحرف وألقاب العاملين بها وترتيب عملهم، ومن هذه الحرف[113]:

---

(105) المصدر نفسه، ص 49.

(106) المصدر نفسه، ص 23.

(107) المصدر نفسه، ص 14.

(108) المصدر نفسه، ص 34، 69، 83، 95.

(109) المصدر نفسه، ص 38، 70، 72. وانظر: شهاب الدين أحمد بن عمر الخفاجي (ت: 1069هـ/1658م)، **ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا،** ط1، تحقيق عبد الفتاح الحلو، ج2، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

(110) الكنجي، **بلوغ،** ص21، 72، وقارن مع: محمد أمين المحبي (ت: 1111هـ/1699م)، **نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة،** 1969، تحقيق عبد الفتاح الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

(111) الكنجي، **بلوغ،** ص22. وانظر: سعيد بن محمد السمان (ت: 1172هـ/1758م)، **ذيل نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة،** مخطوط مكتبة الأسد، الظاهرية، دمشق، رقم 2416، 26 ورقة.

(112) يشار هنا إلى مؤلف آخر للكنجي بعنوان: **رشف النبيه من ثغر التشبيه،** مخطوط رقم 4677، مكتبة الأسد. دمشق (الظاهرية) ق.ق: 2-13ظ. د.ق.

(113) محمد سعيد القاسمي، (ت:1284هـ/1876م)، ومحمد جمال الدين القاسمي (1332هـ/1914م)، وخليل العظم (ت:1345هـ/1926م)، **قاموس الصناعات الشامية،** تحقيق، ظافر القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، ط1، دار طلاس، دمشق، 1988.

الزمار: "هو من يغني بالقصب، وهو نوعان: من يسترزق بالتزمير بالقصب ويطوف بالأسواق على الدكاكين فيزمر إما بشبابة أو شبابتين، أي قصبتين شدت إحداهما بالأخرى بخيط أو وتر قد ربط على فم قربة لها فم آخر إلى جهة فمه، فينفخ بالقربة حتى تعظم ويسد فم النفخ في صدره ويطلق هواها على الزمر المربوط، ويحرك أصابعه بأثقاب القصب بحركات مخصوصة حسب إرادته، بأي نغم يشتهي ويطوف على القهاوي والأسواق، وهذه الفرقة تسمى **الجعيدية،** والزامر يقال له "جعيدي" وأهل تلك الحرفة كسبهم ومعاشهم من ذلك، والنوع الثاني: يطلق على من يصنع الزمامير من القصب كالشبابة وهي حرفة مخصوصة بمحلات مخصصة كسوق السنانية عندنا مما يكثر فيه اجتماع العرب، كالحوارنة لأن غالب بيعهم وتسببهم على العرب الفلاحين"[114].

تهليلجي[115]: "وهو عنوان لرئيس الذاكرين في التهليلة ولمن تحت يده أيضاً، ويقال لهم "الدخّل"؛ فبعد وفاة المتوفى يذهب وصيه أو ورثته إلى من يعمل التهاليل، من بعض العلماء أو مشايخ الطرق، ويعطيه من المال حسب قدرته أو ما يتبرع به ورثته وذلك من الخمسمائة قرش إلى عشر ليرات، وربما زادوا عن ذلك إذا كان المتوفى تاجراً، فيأخذ شيخ التهليلة هذا المقدار ويشتري سمنا لقلي العوامة وطحينا من الجنس العالي، وقزيرة زيت الغاز وخشبا يابسا يسمى نقضا لسرعته في الاشتعال تحت مقلاة العوامة، وسكراً ودخاناً ويرسل وراء قلاء العوامة، ويشترط معه على العجين والطحين وعمله، فيحضر ويعجن من النهار في أطباق، ويبني كانونه، وتهيأ له تنكة من السمن ويكون بيت الشيخ تهيأ بفرشه وترتيب أمكنته لجلوس الضيفان والمدعوين، وتعلق المصابيح كما يكون قد دعا رئيس الذكر مع جماعته، وهم نحو ستة أو أكثر وقد يدعى لها جماعة من المولوية حتى أذان العشاء يأخذ المدعوون وأهل الذكر ومن المدعوين الشيخ ومن جيران الشيخ وأهله يفدون لدار الشيخ... فبعد أن يلبث الجميع حصة يتناولون بها القهوة، تفرق أجزاء الربعة فبعد أن تقرأ تمد إلى رئيس الذكر وجماعته فرش يجلسون عليها ويبتدئون بعملهم وتسمى "المسبحة الأولى" ويبقى الذكر نحو ساعة ونصف، والمنشدون من ورائهم ستة عشر حسب أهمية التهليلة، ويضيفون إلى الأذكار كثيرا أناشيد "الششتري" ويقرأون "الأكرامية" ومنظومة "الدردير" أو البكري بتمامها وتُرى ضجة المنشدين والذاكرين وتسمع من مسافة عشرين بيتاً أيام الصيف! وبعد انقضاء العمل يستريحون برهة يشربون فيها القهوة. ثم يقومون إلى إعادة العمل السابق بعمل أخف يستمر نحو الساعة، ثم يستريحون أيضاً ويقومون بعد الوقوف فيذكرون قياماً أقل من ساعة بأنواع من الأناشيد والهيام والتواجد. وتلبس جماعة المولوية وهم عشرة أو اقل لباسها الأبيض وتدور على الذكر ثلاث مرات في ثلاث ترويحات ثم ينصرفون.

(114) انظر: القاسمي، **قاموس،** ص168-169. سجل شرعي 31، حجة345، ص230، 12 رجب1121هـ/1709م، "لدى مولانا... وجد السيد عمر بن محمد الزمار من طائفة الزمارين مقتولا...".

(115) سجل شرعي 41، حجة 234، ص124، 4 شعبان 1133هـ/1720م، "لدى مولانا ...ادعى محمد بن صالح التهليلجي على سليم بمبلغ...".

ويختم رئيس الذكر ثلاث مرات وجماعته يرددون الذكر- المعروف بذكر الخماري- الذي هو الآمدية، ثم يختمون. ويدعو شيخ التهليلة، ويؤمن الحاضرون على هذا الدعاء ثم يجلسون. ويكون أهل دار الشيخ قد هيأوا سفرة الطعام من بعد المسبحة الأولى، وعدوا لها من حضر تدريجا على حسب مقامهم، ولا يفرغ الذكر بتمامه حتى يأكل الحاضرون كلهم وينصرفوا تدريجاً، ثم يفرق الشيخ الجوائز على الذاكرين والمنشدين والمولوية ومن خدم". (116)

الحكواتي: وهو "اسم لمن يحفظ الحكايات ويلقيها عن ظهر قلب كقصة عنترة، والملك الظاهر والملك سيف وحكايات مضحكة وغير ذلك، وله في كل قهوة مكان مخصوص لالقاء الحكايات وغالباً بعد المغرب إذ يجتمع الناس في القهوة وتصغي لاقواله مع السرور والانبساط، وقبل الحكاية يحكي لهم مقدمة تسمى الدهليز، وفيها أمور مضحكة ونصائح وهي من العجب ثم بعد اتمامها يشرع لهم في اتمام ما كان قدمه في الليلة الماضية؛ لأن الحكواتي يقف في محل من القصة تتطلب النفوس لإتمامها وبعضهم يتأذى لذاك القطع العظيم وذلك شطارة ومهارة من الحكواتي... والحكواتي لا يقتصر على عمل المقاهي بل يذهب إلى البيوت بأجرة مخصوصة، عند اقتضاء ليلة السرور"(117).

المضحك: "هو من يضحك الناس في اقواله وأفعاله ويسمى في اصطلاح الشاميين المهرج والمسخن، وينفق أمره عند الاكابر وأرباب البطالة المثرين المترفين".(118) ويلاحظ من تعبير القاسمي أن المضحك يذهب إلى بيوت الأكابر والخاصة، وهو ما يؤكد وجود نوع خاص من التسلية في فئة الأعيان.

الخاتمـة

بدت ثقافة التسلية والفنون في دمشق خلال القرن الثامن عشر، حيوية ومتنوعة، اشترك فيها العامة والخاصة، وأظهرت الدراسة بعض التقاليد الدمشقية الخاصة بمظاهر الفرح والزينة، التي عكستها المناسبات والأفراح التي كان يحييها أعيان المدينة أو عامتها.

وعكست المصادر التي تعود للقرن الثامن عشر وبخاصة كتب اليوميات والحوادث، مستويين من مظاهر التسلية، الأول عند العامة والثاني عند الخاصة، ويبدو واضحاً أن انتماء المؤرخ ومحيطه الاجتماعي قد انعكسا على طبيعة أخباره، وهذا ما يظهر في نموذج ابن كنّان الصالحي الذي نقل لنا نزهات الأعيان والعلماء وسهراتهم ومظاهر الفرح عندهم، في حين بدا البديري الحلاق أكثر قرباً من العامة. وهذا ما جعله معجباً ببعض العلماء والأعيان الذين ارتادوا المقاهي واختلطوا مع العامة. ويبدو أن وجود البديري الحلاق في السوق – بحكم طبيعة عمله- ساهم في نقله لأخبار الغواني وبنات الهوى التي ربطها دوما إما بانتشار الظلم وإما

(116) القاسمي، **قاموس،** ج2، ص223.

(117) القاسمي، **قاموس،** ج1، ص112. وانظر: المرادي، **سلك،** ج2، ص155.

(118) القاسمي **قاموس،** ج2، ص449.

بارتفاع الأسعار وانعدام الأمن، ويبدو واضحاً أن منع بنات الهوى من الظهور في الشوارع لم يفلح من جانب الولاة، مما دفعهم إلى فرض ضريبة محددة تدفع عن كل واحدة في كل شهر.

رصدت الدراسة أسماء بعض المغنين والمنشدين والناظمين وتبين أن مثل هذه الاهتمامات لم تكن حكراً على الرجال، بل شاركت فيها المرأة أيضاً. وظهر لنا مستويان من العاملين في فن الحكاية الشعبية، كما زاد انتشار المقاهي وتعميرها لدى الولاة والأعيان وانتشرت المقاهي في مواقع مختلفة من أبرزها الأسواق العامة أو في الأحياء الدمشقية خارج سور المدينة، واحتضنت المقاهي غير المسلمين من العاملين في ضرب الآلات الموسيقية من اليهود القادمين من حلب، كما شارك النصارى في الحفلات الخاصة.

بينت دراسة مظاهر التسلية أن عامة الناس كانوا يخرجون بشكل جماعي لقضاء أوقات الفراغ، في ظاهرة السيران، كما يوجد أيضاً دعوات خاصة للسيران بين الأعيان والعلماء، هذا إلى جانب السهرات الخاصة التي كان يتخللها المذاكرات الأدبية وإنشاد الشعر. ويبدو أن وجود حرفة المضحك الذي يذهب إلى بيوت الخاصة ما هو إلا خير دليل على الفرق بين تسلية العامة والخاصة في هذه الثقافة، وظهر واضحاً من الدراسة طول مرحلة السهر لدى الدمشقيين.

وإلى جانب المقهى كوسيلة عامة للتسلية، وجدت الجواري وبنات الهوى وصندوق الدنيا، ويظهر لنا أن الحرف المرتبطة بالغناء والإنشاد امتازت بترتيب دقيق ومحكم، وأن فن الإنشاد والغناء الصوفي ساهم مساهمة كبيرة في تطور الغناء والموسيقى الدمشقية والحفاظ عليها. وتدلنا حرف الفن والإنشاد على التقاليد الخاصة بها، وأنواع الأطعمة التي يصنعونها في حفلاتهم، كما تمدنا تراجم أهل الغناء بمعلومات عن ثقافة تلك التراجم ورحلاتهم وشيوخهم والتراث الشعري الذي كان يغنى في مرحلة الدراسة.

The Culture of Entertainment in Damascus During the 18th Century

Mohannad Ahmed Mubaidin*

ABSTRACT

This study aims at sheddinglight on the entertainment culture, its manifestations and the arts that were common in the Damascene society during the 12th Hijri century/ the 18th century. The study will rely on the various available historical resources in this respect, and will try to expose the jurisprudence controversy and religious attitudes towards arts in general, mainly the spread of music and mystic sects of the period. Besides, it will discuss the presence and nature of the public cafés that were, and still are, the places which embraced some genres of art, among which are the art of popular tail telling, the popular acting and gatherings of entertainment and singing.

The study will also approach the manifestations of art, ornamentation and entertainment in the customs and traditions of the Damascene people in the aforementioned era. It will try to get the reader acquainted with the art of recitation and the biographies of the eminent bards and singers of the period, as well as tracing some professions related to arts.

The study comprises an introduction, five sections and a conclusion.

Keywords: Culture of Entertainment, Damascene Society, Ottoman Age.

* Philadelphia University, Amman, Jordan. Received on 8/5/2007 and Accepted for Publication on 16/8/2007.